



## مشكلة وجود لا حدود:

عنى فظاعة ما يحدث في البوسنة، فلزعم ان مسيرنا اشد فظاعة ينتظر كوسوفا، لماذا؟

لان البوسنة في النهاية لها كيان معترف به، من قبل في اطار الاتحاد الفيدرالي، وحينها بعدما اعلنت الاستقلال، والجهد الذي يبذله الصرب ينصب على محاولة اقتطاع اكبر مساحة من هذه الجمهورية الوليدة لمساح الصرب الذين يعيشون داخل حدودها، ومن ثم فالقضية في النهاية تتمركز حول الحدود.

اما في كوسوفا فهي مسئلة وجود وليس مجرد حدود، اعني ان جمهورية الصرب تريد كل كوسوفا لها، وتدعي انها بالنسبة لها «ارض مقدسة»، يجب ان تظل في «عمسة» الصرب وبخاصة لثغورهم، ولان اهل كوسوفا المسلمين هم من اصول البانية مفايرة تماما، فطموهم الى الاستقلال دائم، فسيلا عن انه مجرد تاريخيا، وكانت لهم معركة طويلة في ظل الاتحاد اليوغوسلافي، ستمرض لها تروا، انتهت بالاعتراف لهم بالحق في ان يقيموا وحدتهم الفيدرالية المشككة، شلتهم شلن بقية الوحدات السبع الاخرى في يوغوسلافيا.

مع ذلك فإن لصرار صربيا على اقتصاص كوسوفا لم يتوقف، وما للقنمات الراهنة سوى حلقة في ذلك السياق، تمهد لطور حاسم يتحدد في ظل مسير كوسوفا، وهل ستخضع وتسلم كما يراد لها، ام لنها ستصر على الاستقلال الذي غدا داب الجمهوريات اليوغوسلافية الاخرى، ولنى اي حد سيكون يامنظ الثمن الذي سيدفع لقاء هذا الاحتمال او ذلك.

لان الهدف ابعده مما هو مطروح في البوسنة، فالتفر المتيقن ان الثمن سيكون اكبر، سواء في حالة الاستقلال الذي تصر عليه كوسوفا، ام في حالة الاخضاع الذي تسمى اليه صربيا.

ان جريمة صربيا في البوسنة طارئة وهارضة، بينما هي في كوسوفا جريمة دائمة، وعدون صربيا على البوسنة فاضح ومكشوف، يستطيع المجتمع الدولي ان يلاحقه ويضبطه، مثلما حدث عندما دعا مجلس الامن الى انسحاب الجيش الصربي الى خارج حدود جمهورية البوسنة، لما في حالة كوسوفا فلعدوان تصعب ملاحظته، باعتبار انها مقتضية ومسورة في دحل الحدود الصربية ذاتها، ومن ثم فالسوق والاقتراس في ظلها ايسر، وربما كان غاية ما يمكن ان تطالب به صربيا هو مجرد «احترام حقوق الانسان» في ارضها، حيث لا مجال لمطالبتها بالانسحاب من «مقاطعة» تقع داخل حدودها.

مع ذلك فالوضع اكثر تعقيدا مما يحسب كثيرون، ولن نستطيع ان نستوعب مدى تعقيد الا لنا مرورا بفصول القصة الدامية..

لقد عرف التاريخ القديم لمنطقة غرب شبه جزيرة البلقان صراعا متقاطعا بين جنسي «الاييريين» الذين ينتمي اليهم الالبان، وبين «السلافيين»، الصربيين، ولنى العصور الوسطى كان الالبان قد استقروا على ارض البانيا الراهنة وكانت كوسوفا جزءا منها، غير ان احد ملوك الصرب (اثنان دوشان) غزا البانيا في القرن الرابع عشر، واقام الامبراطورية الصربية، واعطى لنفسه لقب امير لطور بيزنطة وسلوفينيا والبانيا.

غير ان الفتح العثماني للمنطقة الذي بدأ في نفس الوقت (القرن الرابع عشر) غير من خرائطها، حيث جرت في عام ١٢٨٩م للولجها العاصمة بين الصرب والأتراك على ارض كوسوفا، هزم للصرب في تلك المعركة، لنتي قتل فيها كل من السلطان العثماني مراد وملك الصرب، ولنى هذه للمعركة يستند للصرب في ما يعتبرونه «حقا تاريخيا» لهم في كوسوفا، ويصفونها بلها الارض للقدسة التي ارتوت بدماء ابنائهم في حروبهم ضد العثمانيين، ويسقطون من الاعتبار لنهم كانوا في المنطقة غاصبين ومحتلين لكوسوفا والبانيا كلها، وهو ما يعرف جيدا أي دارس لتاريخ المنطقة، وما عبر عنه بوضوح للؤرخ الفرنسي «الان دوسراييني»، حين ذكر صراحة: «ان أي بحث في التاريخ يقف شاهدا ضد انعاء صربيا في كوسوفا، لكن حقائق التاريخ تشهد بلن للصربيين كانوا في كوسوفا بوصفهم محتلين ومغزوين على الارض».

تحولت البانيا، ومعها كوسوفا، الى «ايلة» عثمانية منذ القرن الخامس عشر، وظلت كذلك لنى ان غابت الشمس عن الامبراطورية العثمانية، وانهزمت امام روسيا الفيحسرية في اولخر للقرن التاسع عشر (عام ١٨٧٨م)، عندئذ بدأت مختلف الاطماع تتجه الى اقتسام تركيا، لرجل العثماني المريض، وكانت الامم في مملكة صربيا تتجه الى ابتلاع البوسنة وكوسوفا، غير ان ضم البوسنة الى الامبراطورية النمساوية - الهنغارية آنذاك لثبر صربيا حقا، ولكن جعلها تركز على كوسوفا، كسطح رئيسي.

قادت صربيا تحالفا بين جاراتها (بلغاريا والجبل الاسود واليونان) لاتها، الوجود للعثماني في البلقان، واتتاء الحرب البلقانية العثمانية (١٩١٢م) اعلن الالبان استقلالهم، وكانت الاغلبية الساحقة منهم قد تحولت الى الاسلام، غير ان لنتها، الصرب بهزيمة العثمانيين لم يوقف مطامع صربيا في بلاد الالبان، ولنى مؤتمر عقنته الدول الغربية للنتصرة في لندن عام ١٩١٢ وزعت اجزاء من الاراضي البانية على للنتصريين، وبمعنا كانت مساحة البانيا حوالي ٧٠ ألف كيلومتر مربع، فبأنها بعد اقتسام الفتيمة تنكصت الى حوالي ٢٩ ألف كيلومتر مربع فقط.

## تصفية الحساب مع «الأتراك»

كانت «كوسوفا» هي الجائزة التي فازت بها المملكة الصربية

بعد الإحراق قام الصربيون الارثوذكس بتصفية حسابهم مع المسلمين الذين اعتبروهم «اتراك» فبدأت المذابح الجماعية لأولئك المسلمين اليوساء، مصحوبة بالنهب والحرق البيوت واغتصاب الارض، والاكراه على تغيير العقيدة بعد ذلك كله الأرقام المتاحة تقول بلز ١٥٠ الف الباني قتلوا في تلك المرحلة، بينما هاجر من كوسوفا الالف الآخرون لا يعرف عندهم.

لم يتغير الوضع كثيرا في ظل المملكة اليوغوسلافية الاولى التي قامت في اعقاب الحرب العالمية الاولى، إذ ظل الهدف هو «تصريب» كوسوفا بمختلف الوسائل، وأولها «التهجير» (في عام ١٩٢٨ وقعت يوغوسلافيا مع تركيا اتفاقية تقضي بتهجير ٤٠٠ الف عائلة البانية اليها خلال السنوات الثماني التالية)، أما الحل الأخير فهو: القتل والامانة، وهو ذات الاسلوب الذي اتبع مع المسلمين بعد سقوط الاندلس، الذي خبرهم بين أمور ثلاثة: التنصير أو الطرد أو القتل؛ خلال الحرب العالمية الثانية ظل قادة حركة التحرير الشعبي ليوغوسلافيا يعلنون انه بعد انتهاء الحرب سيمنح الشعب الباني في كوسوفا حقه في تقرير مصيره، بما في ذلك حقه في الانتماء لبلده الام (البانيا)، ولكن هذه التصريحات التي اتبنتها وثائق رسمية تسببت بعد تحرير يوغوسلافيا، وأرسلت قيادة الحزب الشيوعي وحدت من الجيش لاحتلال كوسوفا، الأمر الذي فوجئ به الباني وظلوا يقاومونه طيلة ثلاثة اشهر (من ديسمبر ١٩٤٤ إلى فبراير ١٩٤٥)، وقد قتل في تلك المقاومة ٤٧ الف الباني!

في عام ١٩٤٥ قررت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي تقسيم الاراضي البانية الممتدة بين ثلاث جمهوريات هي: صربيا ومقدونيا والجبل الأسود، ومن ثم فقد الحق إقليم كوسوفا بصربيا، و«هديت» بعض المدن والقرى البانية الأخرى إلى الجمهوريتين الأخيرتين (في الوقت الراهن يعيش مليوني مسلم في كوسوفا، ومليونان خارجها).

في الدستور اليوغوسلافي الذي صدر سنة ٤٦ نص صريح على تبعية كوسوفا لصربيا، كإقليم يتمتع بحكم ذاتي، ظلت مقوماته تقلص تدريجا إلى أن ألغى بالكامل في دستور ١٩٦٣، وظل البانيون يقاومون بكل الوسائل سياسة قمعهم وترويضهم في الإطار الصربي، حتى استعادوا حقهم في الحكم للذاتي في تعديل للدستور تم

سنة ١٩٦٩، وصار بإمكانهم تنظيم القوات المسلحة للدفاع الاقليمي والاستقلال المالي والقضائي، ويصدر دستور سنة ١٩٧٤، جرى تكريس الحكم الذاتي وتوسيع نطاقه، إذ في ظله أصبحت كوسوفا وحدة فيدرالية متساوية مع بقية للوحدات الفيدرالية الأخرى للبلاد، وهو ما انطبق على البوسنة أيضا، الأمر الذي بدأ ولكنه انهي السيطرة الصربية على هاتين المنطقتين اللتين تتركز فيهما الاقلية المسلمة.

## كوسوفا جمهورية مستقلة

بعد وفاة الرئيس تيتو سنة واحدة، بدأ الصرب في سحب كل ما حققته كوسوفا من إنجاز على صعيد تأكيد هويتها، فانتهمزت فرصة خروج للظواهرات السلمية التي طالبت باقامة جمهورية للباني في كوسوفا، والتي كان للدافع الاساسي لها هو الخوف من تسليح الحكم الذاتي بعد رحيل تيتو في سنة ٨٠، وتغاضف الأزمة الاقتصادية في البلاد.

ووجهت المظاهرات التي انطلقت عام ٨١ في «بريشينا» - العاصمة - بقمع وحشي واسع النطاق من جانب الشرطة والجيش الواقعين تحت سيطرة للصرب، وفي اعقابها بدأ التنفيذ العملي لسياسة إلحاق كوسوفا بالكامل بجمهورية صربيا، التي توجت بمحاصرة برلمان كوسوفا وإجبار اعضائه بقوة السلاح على تصديق قرار بإلغاء الحكم الذاتي، واعادة الهيمنة الصربية على الشعب الباني لتسلم. حدث ذلك في شهر مارس عام ١٩٨٩، غير أن الاعضاء الباني في برلمان كوسوفا وكبار السياسيين في البلاد ظلوا يعلنون رفضهم للقرار ولدلتهم لأسلوب استصداره، وعقدوا اجتماعا في مجلس البرلمان، الذي لم يسمح لهم بدخوله، اصنروا في اعقابها بيانا يرفض الغاء الحكم الذاتي، وردت للسلطات الصربية بوقف سير العمل في حكومة كوسوفا وبرلمانها، والغاء كل المؤسسات الأخرى التي تمثل الشعب الباني.

الخطوة الأهم في المقاومة السياسية تمت في شهر سبتمبر «أيلول» عام ١٩٩٠، عندما عقد برلمان كوسوفا (مجلس الشعب) اجتماعا سرا في مدينة «قاشانق» (ينطقونها كاشانك)، أسفر عن إعلان دستور جديد، على لسانه أصبحت كوسوفا جمهورية يوغوسلافية، ويعد انهاء الاتحاد وإعلان استقلال أربع جمهوريات يوغوسلافية، قرر مجلس الشعب الكوسوفي في اجتماع عقده خلال شهر سبتمبر من العام الماضي (١٩٩١) إعلان كوسوفا جمهورية مستقلة، وقرر اجراء استفتاء حول ذلك الاعلان، رغم الملاحقة البوليسية الواسعة، ورغم الصعوبات التي أقامها الجيش الصربي لمنع للوصول إلى مختلف المدن والقرى التي يسكنها للشعب الباني (عدها ١٣٤٨ مدينة وقرية).

استغرق الاستفتاء خمسة أيام (من ٣٦ إلى ٣٠ سبتمبر) واشترك فيه ٨٧٪ من الناخبين، وكانت النتيجة هي الموافقة على الاستقلال بنسبة ٩٩.٨٧٪. بعد ظهور نتيجة الاستفتاء اختار مجلس الشعب حكومة جديدة برئاسة الدكتور يويار بوتوشني، وأعلنت الحكومة موافقتها على البقاء ضمن الاتحاد اليوغوسلافي على أساس المساواة مع الآخرين، إذا قرر له أن يقوم، ولصبرها على الاستقلال التام إذا ما قررت جمهوريات الاتحاد الانفصال واقامة كيانات سياسية مستقلة.

كان الرد الصربي على ذلك هو تلك الاجراءات التي اشرفنا عليها في مستهل المقال، والتي تعبر عن رفض لكل ما تم وعدم الاعتراف بشرعيته، وفي الوقت ذاته فإنها استمرت في حشد العشود وشحن السكاكين لاجولة / منبحة تصمم للوقوف لصالحها.

الكوسوفاويون يشعرون الآن بهموه وحذر، ويعنون لانتخابات برلمانية جديدة في الاسبوع القادم، وحينها صار لهم مقر يمثل حكومة الاعلام في جمهوريتهم لقيم في العاصمة السويسرية جنيف.

سلك أحدكم، ساذا ستفعلون إذا أُرقت الأزفة، فقال: ليس أملنا خيار، ولذا اضطررنا إلى القتال فنسخر من المعركة معتمدين على الله.. ولو بالمجازة!